المقياس: فلسفة التاريخ و الحضارة

المستوى: أولى ماستر-فلسفة تطبيقية-

المحاضرة:الرابعة

عنوان المحاضرة: التفاسير الدينية و الفكرية للتاريخ

الأستاذة:شرماط.ف

2_التفسير الإسلامي للتاريخ

لقد قدم الإسلام نموذجا خاصا لمفهوم التاريخ و من ثمة التأسيس للوعي التاريخي المرتبط بالأحداث المتعاقبة و بالزمان،ذلك أن الإسلام يقدم تصورا يقيم توازنا بين الحياة الدنيا و الأفعال البشرية على اعتبار أن الإنسان هو خليفة الله على الأرض ، كما أن التشريع الإسلامي يدعو إلى اتباع قيم إجتماعية تقوم على مبادئ التعايش و التسامح و التآخي و العدل و المساواة...

كما أن فكرة التاريخ من حيث هي سردية لأحداث الماضيين من البشر متواجد في القرآن الكريم فيما ارتبط بالقصص-قصص الأنبياء و أقوام كانت لهم حضارات و فعل في الحياة-

مما يدعو إلى التدبر في سنن الوجود و قوانينه الحاكمة للصيرورة التاريخية كما قوانين الحتمية و الدفع بمعنى فكرة الصراع، إن الرؤية الإسلامية للتاريخ تقف عند حقيقة الفعل الإنساني باعتباره مسؤولا على أفعاله و تصرفاته فالإنسان هو صانع التاريخ و فاعله في

ظل ظروف و معطيات تستلزم النظر فيها وفقا للقوانين الحتمية التي يتحكم فيها الزمان و الصيرورة المتافيزيقية، غير أن هذا القول لا يدفعنا إلى الجزم بأن القرآن قدم لنا نظرية في التاريخ بل أن القرآن الكريم قدم وقائع تاريخية حدثت بقوانين ثابتة خاضعة لمبدأي السببية و الحتمية.

يقودنا الحديث هنا إلى البحث في مسألة العناية الإلهية للتاريخ كما هو الحال في النموذج المسيحي الذي سبق لنا التطرق إليه؟ لا يمكن إنكار أن ثمة تيار يفسر القوانين الكونية بما فيه التاريخية تفسيرا جبريا خاضع لمبدأ العناية الإلهية إذ نجد هناك من يرى [ان القرآن الكريم قدم نظرية متكاملة في التاريخ منذ بداية الخليقة إلى نهايتها فكل ما يحدث خاضع لمشيئة الله و لا شيء خارج عن علمه و مشيئته هذا التوجه يتزعمه الجبريون الذين ينفون نفيا مطلقا حرية الإنسان و يقررون بأن فعل الإنسان ماهو إلا صورة لفعل الله في الدنيا.

يقضي هذا التفسير على قدرة الإنسان العقلية في تدبير أموره و تسير أحواله، فالتاريخ في النهاية صناعة الله القادرة على كل شيئ.

و في المقابل نجد من يرى أن الفعل الإنساني هو من يصنع التاريخ، و أن العناية الإلهية لا توجه فعل البشر و إنما هي عادلة و عالمة بما يقوم به الفرد و الجماعة، يتقرر مبدأي الحرية و المسؤولية كأساسين ثابتين في تحديد الفعل التاريخي بعيدا عن التوجه الميتافيزيقي للفعل، إن هذا التوجه تبناه زعماء التيار المعتزلي حيث اعتبروا العقل أداة كافية لتقرير مصير الإنسان ذاته و مصير البشرية جمعاء، فالعدل الإلهي يستوجب تكليف العاقل في الدنيا و تحمله التبعة في الآخرة إما ثوابا أوعقابا، فالإنسان مسؤول عن مصيره و الحدث

التاريخي ماهو إلا نتيجة تراكم و تفاعل ظروف موضوعية، إن هذا التفسير يقربنا من الرؤية الماركسية للتاريخ التي تقوم أساسا على الفعل في الطبيعة لتحريك التاريخ بكل موضوعية مما يجعله قابلا للدراسة العلمية و تحليله من منظور إقتصادي مادي أيضا لأن الإقتصاد هو الذي يحدد مكانة الأفراد في المجتمع و طبقاتهم مما يولد الصراع بينها فيؤدي إلى حركية تاريخية مستمرة.

و مع ذلك يمكننا القول مهما اختلفت الآراء حول كيفية تفسير الأحداث التاريخية بين النظرية التيولوجية للتاريخ و نظرية الفعل الإنساني، هو أن الإهتمام الفعلي بالتارخ عند المسلمين لم يكن قائما إلا بعد وفاة الرسول –عليه الصلاة و السلام-حيث بدأ المسلمون بجمع الأحاديث وتدوين الغزوات و الحروب و مشكلات الخلافة و غيرها من الأحداث التي حدثت في عصر الرسول الكريم و بعده. و من أبرز المؤرخين في تلك الفترة نذكر المسعودي و الواقدي و الطبري و ابن كثير و البيروني و غيرهم الكثير.

أما إبن خلدون فيعد نموذجا خاصا في التنظير التاريخي لما بعد القرن الرابع الهجري و قد حددنا القرن الرابع الهجري لتمييزه بإهتمام المسلمين الشديد بالكتابة التاريخية ليس فقط في تدوين أحداث التاريخ الإسلامي بل أيضا البحث بطرق علمية في حقيقة تاريخ غير المسلمين و الحضارات التي تتقاطع في وجودها مع المجتمع الإسلامي، و من هذا يظهر أن موضوع التاريخ عند ابن خلدون ينحصر في أخبار ما حدث من الفتوحات و الحروب و ما توالى على الجكم من ملوك و دول، انما موضوع التاريخ واسع النطاق يبحث عن كل ما حدث من تحولات و تغيرات داخل المؤسسات الإجتماعية، بما في ذلك الإخبار المتعلقة

بلأحوال أحوال و تغيرات داخل العمران البشري.و لذا نجد ابن خلدون يربط بين التاريخ و العمران في مؤلفه" كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" حيث اعتبر " أن المبتدأ هو العمران و الخبر هو التاريخ." فالعمران هو موضوع التاريخ الذي يستقي منه أحداثه، بينما التاريخ مصور للحياة العمرانية المتقلبة بمرور الزمان و سجل لأحداث العمران من أحوال الأجيال الناشئة و تقلباتها على مر الأيام، و بذلك أدرك ابن خلدون ظاهرة التغيير الإجتماعي و هذا ما أراد أن يبرزه حين قال:" أحوال العالم و الأمم و عوائدهم و نحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة و منهاج مستقر، إنما هو الإختلاف على الأيام و الأزمنة و انتقال من حال إلى حال و كما يكون ذلك في الأشخاص و الأوقات و الأمصار فكذلك يقع في الآفاق و الأقطار و الأزمنة و الدول." و معنى هذا أن ابن خلدون قد تنبه لنقطة هامة و جوهرية في فلسفة التاريخ عندما أدرك التاريخ كمنطق للتغيير و النسبية و ليس للثبات و الإستمرار، بل ان " المقدمة دفاع عن مشروعية التغيير في التاريخ" على اعتبار أنه إذا كان التاريخ تسجيلا لحياة الناس فهو مجموعة من الأحداث و الوقائع تختص بفرد أو بمجتمع أو بأمة..و هذه تتبدل و تختلف بتبدل الأزمان و العصور، و تبدلها يعني ظهور موضوعات جديدة، ويتطلب لمعالجتها إبداع مناهج جديدة، غير التي كانت سائدة و غرض ابن خلدون من هذا أن يبين شروط المؤرخ الحقيقي، الذي عليه حتى يفهم التاريخ أن يقوم بتمحيص الأخبار، يميز الحق من الباطل و أسباب وقوعها و هو لذلك" محتاج إلى مآخذ متعددة و معارف متنوعة وحسن نظر و تثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، و ينكبان به عن المزلات و الغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل و لم يتحكم في أصول العادة و القواعد السياسية و طبيعة

العمران، و الأحوال في الإجتماع الإنساني، و لا قياس الغائب بالشاهد..."كما أنه لفهم التاريخ فهما حقيقيا على المؤرخ التزود بالوسائل اللازمة للإطلاع عليه و في هذا الصدد يقول ابن خلدون:" يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بالقواعد السياسية و طبائع الموجودات و اختلاف الأمم و البقاع و الأمصار في السيرة و العوائد و النحل و المذاهب و سائر والأحوال و الإحاطة بالحاضر..."فالمؤرخ عليه أن يراعي، كل هذه الأشياء و عليه أن يتعرف على هذه العوم المتعددة لفهم التاريخ فهما حقيقيا " و هذا ما سيأخذ به في ما بعد لوسيان فافر الذي يرى بأن المؤرخ لم يعد إنسان بطاقات معتكفا في مكتبه... سيأتي يوم يكون فيه مخابر للتاريخ."

على الرغم مما قدمه ابن خلدون في تحديد معالم فلسفة التاريخ و المهنج التاريخي القائم على مبادئ علمية –السببية و الحتمية- إلا أن هناك من يرى أن ابن خلدون كغيره من المنظرين السابقين للتاريخ الإسلامي يتأثر في تحليلاته لقيام و سقوط الحضارة الإسلامية من خلال -نظرية الدورة التاريخية المتعاقبة-بالرؤية الدينية و إقحام بعد العناية الإلهية في تحديد مجرى الأحداث التاريخية.

و خلاصة القول ان التفسير الديني للتاريخ فرض وجوده على المشتغلين بفلسفته على الرغم من تطور مسار الرؤية النظرية للتاريخ و التي تقوم على البعد الوضعي العلمي.